(**وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)**) .

[يونس : ١٩] .

(**وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً**) المراد بالناس : الجنس البشرى كله في جملته ، فإنهم كانوا أمة واحدة. ثم كثروا وتفرقوا وصاروا شعوبا وقبائل.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالناس هنا : العرب خاصة ، فإنهم كانوا حنفاء على ملة إبراهيم ، إلى أن ظهر فيهم عمرو بن لحى الذي ابتدع لهم عبادة الأصنام.

قال ابن الجوزي : شرحنا هذا في سورة [البقرة : ٢١٣] وأحسن الأقوال أنهم كانوا على دين واحد موحِّدين ، فاختلفوا وعبدوا الأصنام ، فكان أول من بعث إليهم نوح عليه السلام .

قال تعالى في سورة البقرة (كان النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ) .

قوله (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) أي : كان الناس على الإيمان والفطرة ، وهذا بين آدم ونوح .

- فالمراد بالناس هنا : الذين هم بين آدم ونوح ، فسار هؤلاء على التوحيد من عهد آدم إلى أن انتشر الشرك في عهد نوح ، وهذا قول أكثر المحققين .

قال ابن عباس : كان بين نوح وآدم عشرون قرون كلهم على شريعة من الحق ، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين .

- قال ابن الجوزي : قوله تعالى (كان الناس أمةً واحدةً) في المراد ب «الناس» هاهنا ثلاثة أقوال :

أحدها : جميع بني آدم ، وهو قول الجمهور .

قال ابن عاشور : والناس : اسم جمع للبشر ، وتعريفه للاستغراق.

والأمة : الجماعة العظيمة التي لها حال واحد في شيء مَّا.

والمراد هنا أمة واحدة في الدين.

والسياق يدل على أن المراد أنها واحدة في الدين الحق وهو التوحيد لأن الحق هو الذي يمكن اتفاق البشر عليه لأنه ناشئ عن سلامة الاعتقاد من الضلال والتحْريف ، والإنسان لما أنشئ أنشئ على فطرة كاملة بعيدة عن التكلف.

(**فَاخْتَلَفُوا**) أي : ما بين ضال ومهتد ، فبعث الله إليهم رسله ، ليبشروا المهتدين بجزيل الثواب ، ولينذروا الضالين بسوء العقاب.

(**وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**) أي : ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير القضاء بين الطائعين والعاصين إلى يوم القيامة ، لقضى بينهم سبحانه في هذه الدنيا. فيما كانوا يختلفون فيه وذلك بأن يعجل للكافرين والعصاة العقوبة في الدنيا قبل الآخرة ، ولكنه سبحانه اقتضت حكمته عدم تعجيل العقوبة في الدنيا ، وأن يجعل الدار الآخرة هي دار الجزاء والثواب والعقاب.

والمراد بالكلمة في قوله (وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ...) ما قضاه الله تعالى وأراده من تأخير الحكم بين المؤمنين وغيرهم إلى يوم القيامة.

الفوائد :

١- أن الناس كانوا على الفطرة والتوحيد .

٢- حكمة الله في وجود الاختلاف بين الناس .

٣- إثبات الحكمة لله تعالى في كل شيء .

٤- حكمة الله في تأخير العقوبات عن العاصين .

(**وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠)**) .

[يونس : ٢٠] .

(**وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ**) أي: ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: "لولا أنزل على محمد آية من ربه"، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهبا، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارا، ونحو ذلك مما الله عليه قادر ، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله .

ولقد حكى القرآن - في آيات أخرى كثيرة - المطالب المتعنتة التي طلبها المشركون من النبي ﷺ والتي تدل على عنادهم وجحودهم .

ومن ذلك قوله تعالى (وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً. أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ. قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا) .

كما حكى أيضاً سبحانه أنه لو أجابهم إلى مطالبهم لما آمنوا ، لأنهم معاندون جاحدون فقال تعالى إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيم) .

وقال سبحانه : (وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) .

يقول تعالى: إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خيَّر رسول الله عليه السلام بين أن يُعطى ما سألوا، فإن أجابوا وإلا عُوجلوا، وبين أن يتركهم ويُنْظرهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة، صلوات الله عليه .

- ومرادهم بالآية التي طلبوها : آية كونية سوى القرآن الكريم ، بأن تكون معه ﷺ ناقة كناقة صالح عليه السلام أو تكون معه عصا كعصا موسى عليه السلام وكأنهم لا يعتبرون القرآن آية كبرى ، ومعجزة عظمى على صدقه ﷺ .

ومرادهم بإنزالها عليه : ظهورها على يديه ﷺ حتى يروا ذلك بأعينهم.

ومطالبهم هذه إنما طلبوها على سبيل العناد والتعنت لا على سبيل الاسترشاد والثبت ، قال تعالى (وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّه) .

- قال تعالى إرشادا لنبيه إلى الجواب عما سألوا :

(**فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ**) أي: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب في الأمور .

(**فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِين**) أي : إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيَّ وفيكم.

هذا مع أنهم قد شاهدوا من معجزاته، عليه السلام أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره، فانشق باثنتين فرقة من وراء الجبل، وفرقة من دونه ، وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا وما لم يسألوا .

ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشادا وتثبّتا لأجابهم، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادا وتعنتا، فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد .

كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأليمَ) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّنَا نزلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) .

- والجملة الكريمة تهديد لهم على تعنتهم وجهلهم، وتهوينهم من شأن القرآن الكريم، مع أنه أصدق معجزة للرسول ﷺ وأعظمها.

الفوائد :

١- شدة تعنت الكفار وطغيانهم .

٢- أن النبي ﷺ عبد يؤمر وينهى .

٣- أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب .

٤- وجوب رد علم الغيب لله تعالى .

٥- تهديد الكفار بوعيد الله لهم .

(**وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ(٢١)**).

[يونس : ٢١] .

(**وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ**) يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك .

- **قال السعدي** : ... كالصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم.
- أسند إذاقته الرحمة إلى ضمير الجلالة، وأسند المساس إلى الضراء، رعاية للأدب مع الله تعالى، لأنه وإن كان كل شيء من عنده، إلا أن الأدب معه سبحانه يقتضى إسناد الخير إليه والشر إلى غيره كما في قوله تعالى: وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وفي الحديث : « اللهم إن الخير بيديك والشر ليس إليك) .

(**إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا**) أي : يسعون بالباطل، ليبطلوا به الحق.

كما قال (وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ) .

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء –مطر– أصابهم من الليل ثم قال: "هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟" قالوا الله ورسوله أعلم. قال: "قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب .

- وسمى سبحانه إنكارهم لآياته واستهزاءهم بها مكراً ، لأنهم كانوا كثيرا ما يتجمعون سرا ، ليتشاوروا في المؤامرات التي يعرقلون بها سير الدعوة الإسلامية ، وفي الشبهات التي يوجهونها إلى النبي ﷺ .

(**قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا**) أي: أشد استدراجاً وإمهالا حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه .

فالمكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، فمقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من التبعة .

(**إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ**) أي : والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ، ويحصونه عليه، ثم يعرضون على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الحقير والجليل والنقير والقِطْمير .

الفوائد :

١- حكمة الله بعباده حيث يصيبهم مرة بالضراء ومرة بالسراء .

٢-طغيان ابن آدم وقلة شكره .

٣- وجوب القيام بشكر الله على نعمه وخاصة إذا كانت بعد الضراء .

٤- ذم من لا يشكر نعم الله .

٥- تهديد من لا يشكر نعم الله ، ويقومون بحرب الله .

٦- إثبات الملائكة .

٧- أن من أعمال الملائكة كتابة الأعمال .

٨- لا يخفى شيء على الله .

(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)) .

[يونس : ٢٢- ٢٣] .

(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) أي: هو سبحانه الذي يسيركم بقدرته ورحمته في البر والبحر، بواسطة ما وهبكم من قدرة على السير، أو ما سخر لكم من دواب وسفن وغيرهما مما تستعملونه في سفركم، وكل ذلك من أجل مصلحتكم ومنفعتكم.

(حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ) أي : السفن البحرية .

(وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا) موافقة لما يهوونه، من غير انزعاج ولا مشقة.

- المراد بالريح الطيبة : الريح المناسبة لسير السفن ، والموافقة لا تجاهها.

(جَاءتْهَا) أي : تلك السفن .

(رِيحٌ عَاصِفٌ) أي : شديدة .

(وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ) أي : اغتلم البحر عليهم .

(وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ) أي : هلكوا ، أي: عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، فدَعَوُه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .

- أُحِيطَ بِهِمْ ، أي : أحاط بهم البلاء من كل ناحية. يقال لمن وقع في بلية : قد أحيط به.

(دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) بيان لما قالوه بعد أن داهمتهم الرياح العاصفة، والأمواج العالية وبعد أن أيقنوا أنهم على حافة الموت.

أي في تلك الساعات العصيبة ، واللحظات الحرجة، توجهوا إلى الله وحده قائلين: نقسم لك يا ربنا، ويا من لا يعجزك شيء، لئن أنجيتنا من تلك الأهوال التي نحن فيها، لنكونن من الشاكرين لك ، المطيعين لأمرك ، المتبعين لشرعك.

أي : لا يدعون معه صنماً ولا وثناً، بل يفردونه بالدعاء والابتهال .

(لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ) أي : هذه الحالة .

(**لَنَكُونَنّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**) أي : لا نشرك بك أحداً ، ولنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء ههنا .

(**فَلَمَّا أَنجَاهُم**) أي : من تلك المصيبة والأزمة .

قال ابن القيم : التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه؛ فأما اعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون، وأما أولياؤه فينجيهم به من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها ولذلك فزع اليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات، وفزع اليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة، ولما فزع اليه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق له لم ينفعه، لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل، هذه سنة الله في عباده، فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب الا فرج الله كربه بالتوحيد فلا يلقى في الكرب العظام الا الشرك ولا ينجى منها الا التوحيد، فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها وبالله التوفيق .

- **الاخلاص سبب لقبول الدعاء وتفريج الكرب .**

كما في حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة ، فسبب نجاتهم دعوتهم لله تعالى بخالص أعمالهم ، فكان كل واحد منهم يقول (اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ ...) .

- **وهو سبب يصرف الفتنة عن القلب .**

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى (٦٠/١) : فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كلّه لله عز وجل.

ويوسف عليه السلام ما نجى من فتنة المرأة إلا بالإخلاص لله تعالى قال تعالى (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) .

قال ابن تيمية في الفتاوى (١٠/ ٢٦١) : فإن قوة إخلاص يوسف عليه السلام وخشيته من الله عز وجل كان أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها .

- **وهو أنه سبب لاستغناء القلب عن الناس .**

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى : لا يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يحب إلا له ولا يبغض إلا له .

- **وهو سبب للنجاة من النار .**

قال ﷺ (فإن الله حرم على النار يبتغي بذلك وجه الله) .

- **قال ابن رجب رحمه الله** : ومن لطائف اقتران الفرج بالكرب واليُسر بالعسر : أن الكربَ إذا اشتد وعظُمَ وتناهى ، حصل للعبد الإياس من كشفه من جهة المخلوقين ، وتعلق قلبه بالله وحده ، وهذا هو حقيقة التوكل على الله ، وهو من أعظم الأسباب التي تُطلبُ بها الحوائج ، فإن الله يكفي من توكل عليه ، كما قال تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) .

قال الفضيل : لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئاً ، لأعطاك مولاك كل ما تريد . (جامع العلوم والحكم) .

(**إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**) أي : كأن لم يكن من ذلك شيء .

كما قال تعالى (كأن لم يدعنا إلى ضر مسه) .

- أي : فحين أنجاهم الله تعالى بفضله ورحمته من هذا الكرب العظيم الذي كانوا فيه ، إذا هم يسعون في الأرض فساداً. ويرتكبون البغي الفاضح الذي لا يخفى قبحه على أحد.

وقيد البغي بكونه بغير الحق ، لأنه لا يكون إلا كذلك ، إذا البغي معناه : تجاوز الحق ، يقال : بغى الجرح إذا تجاوز حده في

الفساد.

فقوله : بِغَيْرِ الْحَقِّ تأكيد لما يفيده البغي من التعدي والظلم ، فهو بغى ظاهر سافر لا يخفى قبحه على أحد.

(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم**) أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحداً غيركم .

كما جاء في الحديث: "ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يَدخر الله لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم .

(**مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) أي: إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة .

أي : واعلموا أن هذا البغي إنما تتمتعون به متاع الحياة الدنيا التي لا بقاء لها ، وإنما هي إلى زوال وفناء.

(**ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ**) أي : مصيركم ومآلكم .

أي : اعلموا كذلك أن مردكم إلينا بعد هذا التمتع الفاني. فنخبركم يوم الدين بكل أعمالكم ، وسنجازيكم عليها بالجزاء الذي تستحقونه.

(**فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون**) أي: فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

الفوائد :

١- نعمة الله العظيمة بتيسير السير في البر والبحر .

٢-فضل الإخلاص لله ، وأنه سبب للنجاة من الشدائد .

٣- أن الإله الحق هو الله .

٤- وجوب عبادة الله وحده ، لأنه هو النافع الضار .

٥- أن الناس جبلوا على الرجوع إلى الله وحده عند المصائب والمحن .

٦- ذم من يدعو الله عند الضراء وينساه عند الرخاء .

٧-فضل الشكر لله تعالى .

٨- أن عدم الشكر لله من صفات الكفار .

٩- إيمان الكفار بوجود الله .

١٠-شدة طغيان هؤلاء الكفار ، حيث أنجاهم الله ثم بعد ذلك يتكبرون ولا يشكرون .

١١- أن بغي الإنسان راجع على نفسه .

١٢- أن الدنيا متاع زائل .

١٣- إثبات الرجوع إلى الله والبعث والحساب .

١٤- أن الله لا تخفى عليه خافية .

(**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)**) .

[يونس : ٢٤] .

(**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) أي : صفة الحياة الدنيا ، وحالها العجيبة في فنائها وزوالها ، وذهاب نعيمها واغترار الناس بها .

- **قال ابن الجوزي** : هذا مثل ضربه الله للدنيا الفانية .
- **قال السعدي** : هذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتًا قصيرًا، فإذا استكمل وتم اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها.

(**كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ**) كمثل مطر نزل من السماء فنبت به أنواع من النبات ، مختلط بعضها ببعض ، قال ابن عباس : اختلط فنبت بالماء كل لون .

(**مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ**) أي : مما يأكله الناس من الحبوب والثمار والبقول ، والانعام من الكلأ والتبن والشعير .

(**حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا**) أي : أخذت حسنها وبهجتها .

(**وَازَّيَّنَتْ**) أي : تزينت بالحبوب والثمار والازهار ، وهو تمثيل لها بالعروس اذا تزينت بالحلي والثياب .

- **قال السعدي** : أي: تزخرفت في منظرها، واكتست في زينتها، فصارت بهجة للناظرين، ونزهة للمتفرجين، وآية للمتبصرين، فصرت ترى لها منظرًا عجيبًا ما بين أخضر، وأصفر، وأبيض وغيره.

(**وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ**) أي : وظن أصحابها انهم متمكنون من الانتفاع بها ، محصلون لثمرتها وغلتها .

(**أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا**) أي : جاءها قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات ، إما ليلاً وإما نهاراً .

(**فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا**) أي : محصودة مقطوعة لا شيء فيها ، كالذي حصد بالمناجل .

(**كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ**) أي : كأنها لم تكن عامرة قائمة على ظهر الارض قبل ذلك .

(**كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**) أي : مثل ما بينا هذا المثل الرائع للحياة الدنيا ، نبين الآيات ونضرب الأمثال لقوم يتفكرون فيعتبرون بهذه الأمثال .

- **قال الالوسي** : وتخصيصهم بالذكر لانهم المنتفعون بالمواعظ .

مباحث :

أولاً : هذا مثل ضربه الله تعالى للدنيا وزينتها وسرعة انقضائها .

- **قال ابن القيم** : شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغتراراً منه بها حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر فيغتر به ويظن أنه قادر عليها مالك لها فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة فتصبح كأن لم تكن قبل فيخيب ظنه وتصبح يداه صفراً منها فكذا حال الدنيا والواثق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس .

- **وقال ابن عاشور** : شبهت حالة الحياة في سرعة تقضيها وزوال نعيمها بعد البهجة به وتزايد نضارتها بحال نبات الأرض في ذهابه حطاماً ومصيره حصيداً.
- **وقال السمرقندي** : ... فكذلك الدنيا والإنسان يجمع المال ويشتري الضياع ويبني البنيان ، فيظن أنه قد نال مقصده ، فيأتيه الموت فيصير كأنه لم يكن أو رجل ولد له مولود ، فإذا بلغ فظن أنه قد نال مقصوده ، فيموت ويصير كأنه لم يكن.
- **قال ابن عطية** : ومعنى الآية التحذير من الاغترار بالدنيا ، إذ هي معرضة للتلف وأن يصيبها ما أصاب هذه الأرض المذكورة بموت أو غيره من رزايا الدنيا ، وخص " المتفكرين " بالذكر تشريفاً للمنزلة وليقع التسابق إلى هذه الرتبة.

ثانياً : وقد ذكر الله تعالى في سورة الكهف :

قال تعالى (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا) .

وقال تعالى (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ) .

- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ) رواه مسلم .

وقال ﷺ (ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) رواه الترمذي.

وقال النبي ﷺ (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع) رواه مسلم .

قال النووي رحمه الله: ما للدنيا بالنسبة للآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر.

وقال سبحانه وتعالى عن مؤمن فرعون أنه قال لقومه (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ).

وقال القرطبي: متاع: أي يتمتع بها قليل ثم تنقطع وتزول. ودار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود.

قال موسى عليه الصلاة والسلام: الدنيا قنطره فاعبروها ولا تعمروها.

وقال عيسى عليه السلام لأصحابه: من ذا الذي يبني على موج البحار داراً تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً.

وقال: مثل طالب الدنيا كمثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله.

ثالثاً : لطيفة في تشبيه الدنيا بالماء:

لأن الماء لا يستقر في موضع، وكذلك الدنيا.

ولأن الماء لا يبقى ويذهب، كذلك الدنيا تَفْنى.

ولأن الماء لا يَقْدِر أحدٌ أنْ يدخلَه ولا يَبْتل، كذلك الدنيا لا يَسْلم أحدٌ دَخَلها من فِتنتها وآفتها.

ولأن الماء إذا كان بقَدرٍ كان نافعًا مُنْبِتًا، وإذا جاوَزَ المقدار، كان ضارًّا مُهْلِكًا، وكذلك الدنيا: الكَفاف منها ينفع، وفضولُها يَضرُّ.

ولأن الماء مَهْمَا حاولتَ أنْ تمسكه بكفِّك، تفلَّتَ منك، وكذلك الدنيا مَهْمَا حرصتَ عليها وتشبَّثْتَ بها، فلا بد أن تفوتَك.

رابعاً : ذكر فريق من أهل العلم بعض الحِكَم من تشبيه الحياة الدنيا بالزرع:

أحدها: أن عاقبة الاغترار بالدنيا، وما يبذله المرء لأجل تحصيلها، كعاقبة النبات؛ حيث علق صاحبه على جني محصوله أملاً

كبيرًا، لكن سرعان ما خاب أمله، لما نزل بمحصوله من الهلاك؛ وهذا الغالب على المتمسك بالدنيا، واللاهث وراء مكاسبها، أن يأتيه الموت من حيث لا يحتسب. وهو معنى قوله تعالى (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) .

ثانيها: أن يكون وجه التشبيه مثل قوله سبحانه (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) أي: كما صار سعي هذا الزارع هشيمًا تذروه الرياح، بسبب حدوث الآفات المهلكة، فكذلك سعي المغتر بالدنيا، لا جدوى منه ولا فائدة .

ثالثها: أن الزارع لما أتعب جسمه، وكد نفسه، وعلق قلبه؛ أملاً في الانتفاع بزرعه، وطمعًا في جني محصوله؛ فإذا حدث ما أهلك زرعه، وذهب به، حصل له من الشقاء والحسرة الكثير؛ فكذلك حال من أسلم قلبه للدنيا، وأتعب نفسه في تحصيلها، إذا مات، وفاته كل ما ناله منها، صار العناء الذي تحمله في تحصيل أسباب الدنيا، سببًا لحصول الشقاء العظيم له في الآخرة .

خامساً : وقد تضمن هذا المثل القرآني بعض اللطائف :

منها : أن التمتع في هذا الحياة الدنيا، إنما هو لفترة قصيرة محدودة، ثم هو صائر إلى زوال؛ وعلى العاقل أن لا يغتر بما هو زائل وفان، وأن يسعى لتحصيل ما هو دائم وباق .

ومنها : أن انقضاء الدنيا سريع ومفاجئ ويكون من غير سابق إنذار، فإن الإنسان لا يدري، متى ينقضي أجله في هذه الحياة، ومتى يصبح في عداد الموتى، بعد أن كان يشكل رقمًا فوقها؛ وهكذا سنة الحياة، لا تعرف كبيرًا ولا صغيرًا، ولا غنيًا ولا فقيرًا، ولا حاكمًا ولا محكومًا، ولا عالمًا ولا جاهلاً، فالكل في قانون الموت سواء (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)

سادساً : في قوله تعالى (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت) بيان لسبب اغترار كثير من الناس بهذه الحياة الدنيا، حتى تصبح الحياة الدنيا – بمغرياتها ولذاتها وشهواتها – همهم الوحيد؛ فشبهها سبحانه الأرض بالعروس التي تُزفُّ إلى زوجها ليلة العرس، بعد أن تكون قد تزينت له أجمل زينة، وتهيأت له أفضل ما يكون التهيؤ؛ وهكذا الدنيا تتزين لأهلها وطالبيها غاية التزين؛ بحيث تكون أشد إغراء لأهلها، وأكثر إغواء لطالبيها، فيتهافتون على النيل من زخرفها، ويتسابقون إلى الأخذ من نعيمها ما أمكنهم .

الفوائد :

١- تحقير الله للدنيا .

٢- سرعة زوال الدنيا وانقضائها .

٣- من أكبر عيوب الدنيا سرعة انقضائها .

٤- أنه على العاقل أن يعمل بالدنيا للآخرة الباقية .

٥- الحذر من فتنة الدنيا .

٦- على العاقل أن يتأمل ويتدبر آيات القرآن الكريم التي تبين حقيقة الدنيا وأنها دار عبور لا دار مستقر .

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥)) .

[يونس : ٢٥] .

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ) معطوف على محذوف يدل عليه السياق.

والتقدير : الشيطان يدعوكم إلى إيثار متاع الحياة الدنيا وزخرفها ، والله تعالى يدعو الناس جميعا إلى الإيمان الحق الذي يوصلهم إلى دار كرامته.

والمقصود بدار السلام: الجنة التي أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين، وسميت بذلك ، لأنها الدار التي سلم أهلها من كل ألم وآفة. أو لأن تحيتهم فيها سلام، أو لأن السلام من أسماء الله تعالى فأضيفت إليه تعظيما لشأنها، وتشريفا لقدرها، كما يقال للكعبة: بيت الله.

سميت بذلك: لأنها الدار التي سلمت من كل آفة وبلية ومكروه وكدر وهم وغم.

- **قال ابن الجوزي**: وفي تسميتها بذلك أربعة أقوال:

أحدها: أن السلام ، هو الله ، وهي داره ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي.

والثاني: أنها دار السلامة التي لا تنقطع ، قاله الزجاج.

والثالث: أن تحية أهلها فيها السلام ، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

والرابع: أن جميع حالاتها مقرونة بالسلام، ففي ابتداء دخولهم (ادخلوها بسلام) وبعد استقرارهم (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) وقوله (إلا قيلاً سلاماً سلاماً) وعند لقاء الله (سلام قولاً من رب رحيم) وقوله (تحيتهم يوم يلقونه سلام).

وقال ابن القيم: ... فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه ، وهي دار الله ، واسمه سبحانه وتعالى السلام ، الذي سلمها وسلم أهلها ، وتحيتهم فيها سلام ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم ، والرب تعالى يسلم عليكم من فوقهم كما قال تعالى (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولاً من رب رحيم).

- وللجنة أسماء:

أولاً: الجنة.

وهو الاسم العام المتناول لتلك الدار ، وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور.

قال تعالى (سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً).

وقال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ).

ثانياً: دار السلام.

فهي السالمة من كل بلية وآفة ومكروه.

قال تعالى (لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون).

وقال تعالى (وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ).

ثالثاً: دار الخلد.

وسميت بذلك لأن أهلها لا يظعنون عنها أبداً كما قال تعالى (عطاء غير مجذوذ).

قال تعالى (قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء ومصيراً).

رابعاً: دار المقامة.

لأنهم مقيمون بها أبداً ، لا يموتون ولا يتحولون منها أبداً.

قال تعالى حكاية عن أهلها (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ).

خامساً: جنة المأوى.

قال تعالى (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وقال تعالى (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى).

سادساً: جنات عدن.

أي جنات إقامة ، يقال عَدَنَ بالمكان أي أقام به.

قال تعالى (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً).

وقال تعالى (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

سابعاً: دار الحيوان.

أي هي الدار التي لا تنغيص فيها ولا نفاد ، ولا تفنى ولا تنقطع.

قال تعالى (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ).

ثامناً: الفردوس.

والفردوس: اسم من أسماء الجنة ومعناه: البستان الذي يجمع كل ما فيه البساتين.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً).

(**وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**) أي : والله يهدي من يشاء من خلقه إلى صراطه المستقيم وهو دين الإسلام عم بالدعوة أولاً إظهاراً للحجة وخص بالدعوة ثانياً استغناء عن الخلق وإظهاراً للقدرة فحصلت المغايرة بين الدعوتين .

والصراط المستقيم هو الإسلام .

- **قال ابن الجوزي** : واعلم أن الله عمَّ بالدعوة ، وخصَّ بالهداية من شاء ، لأن الحكم له في خلقه.
- قوله تعالى (من يشاء) فيه إثبات المشيئة لله ، وليعلم أن كل شيء علّقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة ، أي : أنه ليست مشيئة الله مجردة هكذا تأتي عفواً ، لا ، هي مشيئة مقرونه بالحكمة ، والدليل على ذلك ، قوله تعالى (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) فلما بيّن أن مشيئتهم بمشيئة الله ، بيّن أن ذلك مبني عن علم وحكمة .

الفوائد :

١- أن الهداية بيد الله .

٢- استحباب طلب الهداية من الله وفي الحديث القدسي (فاستهدوني أهدكم) .

٣- إثبات مشيئة الله .